النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

النصرانيَّة بين عرب الشام (تابع)

على انَّ النصرانيَّة في بادية الشام ما كانت محصورة في غسَّان بل امتدَّت ايضاً الى القبائل العربيَّة من اهل الحضر والمدر الذين سكنوا في تلك الانحاء واختاطوا بمستعربيها فمن اراد ان يتتبَّع تاريخ النصرانيَّة بينها ينبغي عليهِ ان يجمع ما دوَّنهُ المؤرخون اليونان والرومان والسريان من انتشار الدين المسيحيّ في تلك الجهات اذ لا يجوز القول بانَّ النصرانيَّة لم تؤثر في غير الاجانب المستوطنين فيها

فممَّا رواهُ اوسابيوس القيصري في تاريخهِ الكنسي (ك ٦ ف ١٩) انَّ النصرانيَّة كانت في مبادئ القرن الثالث للمسيح راسخة القدم وافرة العدد في بصرى حاضرة حوران. وقد اخبر عن اوريجانوس المعلِّم الاسكندريّ الشهير انَّهُ رحل ثلاث مرَّات الى بُصرى. فالمرَّة الأولى استدعاهُ حاكمها الرومانيّ المدعوّ جالّيوس سنة ٢١٧ ليفقههُ تعاليم الدين المسيحيّ وينصّرهُ فجاء اوريجانوس الى بلاد العرب ملبّياً دعوتهُ وبعد أن تمَّ مرغوب الحاكم وعمَّدهُ رجع الى الاسكندريَّة. امَّا الرحلة الثانية فباشرها اوريجانوس كما افاد اوسابيوس في تاريخهِ (ك ٦ ف ٣٣) بسبب بيرلُّوس مطران بصرى. فانَّ هذا الرجل كان من مشاهير اساقفة زمانهِ في بلاد العرب ألَّف رسائل ومقالات دينيَّة وادبيَّة فصيحة الالفاظ بليغة المعاني لولا انَّهُ شطَّ في كلامهِ عن لاهوت السيِّد المسيح فجرى بينهُ وبين الاساقفة معاصريهِ جدال وخصام ولمَّا لم يقنعوه ارسلوا الى اوريجانوس ليأتي الى حوران فياحث بيرلُّوس المذكور ويردَّهُ عن ضلالهِ فعاد المعلِّم الاسكندري الى حاضرة بلاد العرب وبعد ان اجتمع باساقفتها وتحقَّق شططهُ عرض عليهِ الرأي الصحيح وأزال ريبهُ فجاهر بيرلُّوس

بخضوعه للايمان المستقيم امام مجمع من الاساقفة عُقد لذلك وانصرف اوريجانوس راجعاً الى الاسكندرية. ففي الشام هذ المجمع دليل واضح على نفوذ النصرانيَّة في بادية الشام ووجود اساقفة في مدنها كجرش (Gérasa) وربّة عمّان (Philadelphie)

امّا المرّة الثالثة التي قدم فيها اوريجانوس الإمام الى بادية الشام فكانت بسبب بدعةٍ ابتدعها بعض اهلها فزعموا انّ النفوس تفنى بالموت كالاجساد ثم تُبعث يوم الدينونة معها لتنال الثواب عن اعمالها. فلمّا عرف اوريجانوس بهذا القول اسرع الى تفنيده في مجمع ضمّ اربعة عشر اسقفاً وبيّن امام الجموع الملتئمة لاستماعه حقيقة تعليم الكنيسة فردّ الضالّين وثبّت الايمان في قلوبهم وانكفأ منصرفاً الى مركزه (راجع تاريخ اوسابيوس ك ٦ ف ٣٧)

وكان قبل ذلك بمدّة اشتهر مبتدع آخر نصرانيّ من عرب الشام اسمه منيم (Monoimos) كان هذا كطاطيانوس (Tatien) تلميذاً للقديس يستينوس النابلسي والفيلسوف الشهيد لكنّهُ خلط بين الآراء الفلسفيَّة والايمان كما ذكر تاودوريطوس في كتاب الهرطقات (Fab. Hær. I, 18) واتّضح مؤخرًا من كتاب القديس هيبوليتس الشهيد المدعو بفيلوسوفومينا (Philosophoumena)

وممّا يثبت ارتقاء النصرانيَّة واتساع دائرتها في بادية العرب انّ منها خرج اوّل قياصرة الرومان النصارى. ونريد به فيلبّوس العربيّ الذي ملك على رومية من السنة ٢٤٤ الى ٢٤٩. وكان اصله من بُصرى ثمّ تجنّد في جيوش الرومان ولم يزل يتقلّب في كلّ مناصب الجنديَّة حتّى صار كبير رؤساء العسكر ووزير الحرب وصحب غرديان الثالث في محاربة الفرس. الّا انّ الجند شغبوا على الملك واقاموا بدلاً منه فيلبّوس العربيّ. وكان فيلبّوس نصرانيًا كما تشهد على دينه الآثار التاريخيَّة ورسائل اوريجانوس اليه. وقد زعم البعض انّ غورديان قُتل باغرائه الّا انّ غيرهم ينكرون ذلك بتاتاً ولعلّهُ لم يخلُ من الطمع فلم يدافع عن مولاه كما وجب عليه ولذلك قد اخبر اوسابيوس القيصري (ك ٦ ف ٣٤) وصاحب التاريخ الاسكندري (Chronicon Alexandrinum) انهُ لمّا عاد راجعاً بالعسكر الى رومية مرّ بانطاكية واراد ان يشترك مع النصارى في موسم عيد الفصح الّا انّ اسقف المدينة القديس بابيلاس

تصدّى له ولم يسمح لـه بمشاركة المؤمنين الّا بعد اعترافه بخطاياه وتقدمته التوبة عنها (١ . وكانت ايام فيلبّوس العربيّ ايّام راحة وعمران للدولة الرومانيّة وفي عهده أقيمت الافراح العموميّة في كلّ المملكة بمناسبة مرور الف سنة على مدينة رومية ومن اعماله تشييد مدينة «عمّان» في حوران ودعاها باسمه «Philippopolis» ونالت بهمته النصرانيّة سلاماً موقتاً فانتشرت ايّ انتشار الى ان فتك به احد القوّاد المدعو دقيوس وقتله مع ابنه وتولّى الامر مكانه. قال اوسابيوس (ك ٦ ف ٣٩) انّ دقيوس هذا اثار على النصارى اضطهاداً دمويًا بغضاً بفيلبوس سلفه. وفي تاريخ اوروزيوس (اوروشيوس) من كتبة القرن الخامس (ك ٧ ف ٢١) انّ دقيوس قتل فيلبوس وابنهُ بسبب تنصّرهما وعليه يكون موتهما استشهاداً. وقد جمع البولنديّون في اعمال القديسين (Acta SS. Janv., II, 617 - 621) عدّة شواهد تثبت ذلك. فكفى به فخراً لبلاد العرب انّ اوّل قياصرة رومية المتنصّرين كان مولدهُ في ربوعها وسبق قسطنطين في تنصّره.

كلّ ما سبق قد تمّ قبل القرن الرابع فلمّا نالت النصرانيّة حرّيتها وخرجت ظافرةً من الديامس زاد الدين بذلك رونقاً وعزًا في بادية العرب وكافّة مدنها ولنا ادلّة على ذلك في الكنائس العديدة التي تشيّدت مذ ذاك العهد بكلّ انحاء حوران والصفا واللجا وجولان التي وُجد كثيراً من بقاياها الجليّة الاثريّون الذين تجوّلوا في تلك الجهات كوادنتون (Waddington) ودي ڤوكويه (de Vogüé) وورتشتين (Wetzstein) وراي (Rey) ودوسّو (Dussaud) وآباء رهبانيّتنا. وكلّهم وصفوا هذه الآثار ورسموا تصاويرها وذكروا تواريخها (٢

ومن هذه الآثار مئات من الكتابات اليونانيّة واللاتينيّة وجدت في نيّف ومائة موضع فيها اسماء كنائس واساقفة ووجهاء من النصارى وعليها رموز نصرانيّة لا شكّ فيها كالصليب في هيئات مختلفة واوّل حروف اسم السيّد المسيح والانجر وسعف النخل والسمكة. ومنها ما يحتوي شعاراً دينيًا صريحاً كآية التوحيد «الله

(١ اطلب ايضاً تاريخ مختصر الدول لابن العبري (ص ١٢٦)

(٢ راجع كتاب وادنتون ودي ڤوكوية (Waddington et de Vogüe: *Syrie Centrale: Architecture civile et religieuse du 1er jusqu'au 7e siècle*, Paris, 1864)

واحد هو » وتسبحة السيّد للسيح « قد انتصر المسيح » او « المسيح الـهٌ هو ».
وبين تلك الكتابات كتابة عربيّة سبقت الاسلام خمسين سنة باحرف عربيّة تاريخها سنة ٤٦٣ لبصرى اي ٥٦٨ للسيح وُجدت في حَرّان وجاء فيها ذكر مشهد أُقيم تذكارًا للقديس يوحنّا المعمدان على يد احد شيوخ القبائل العربيّة المدعو شراحيل (١

وكذلك توفّرت شواهد المؤرخين الذين ابقوا لنا ذكرًا للنصرانيّة ولامورها الدينيّة والمدنيّة في بادية الشام. فمنها جداول الاساقفة الذين حضروا المجامع المسكونيّة الكبيرة التي سبقت الاسلام وبالاخصّ الاربعة الاولى في نيقية والقسطنطينيّة وافسس وخلقيدونية فهناك اسماء عدّة لاساقفة اتوا من مدن بادية الشام وصادقوا على اعمال تلك المجامع بتوقيعهم واسماء بعضهم عربيّة محض كالحارث او منقولة عن العربيّة كتاودولس تعريب عبدالله وثاودورس تعريب وهب الله

وكان هؤلاء الاساقفة من اهل الحضر يسكنون مدن بادية الشام. الّا ان غيرهم كانوا يسكنون المضارب ويتنقّلون مع القبائل الراحلة الناجعة المتقلّة في المجالات ارتيادًا لمراعي غنمها ومصالح ابلها. وقد بلغتنا اسماء بعضهم ممّن عُرفوا باساقفة الخيام وحضر بعضهم المجامع الكنيسيّة وامضوا عليها

واشتهر بعض اساقفة البلاد العربيّة بما خلّفوهُ من الآثار منهم القديس طيطس رئيس اساقفة بُصرى وضع عدّة تآليف اعظمها شأنًا ما كتبهُ في تزييف بدعة ماني والمانويين وكانت هذه التآليف مفقودة حتّى توفّق الى اكتشافها في عهدنا بعض المستشرقين فوجدوها في السريانية ونشروها مع ترجمتها . وكان طيطس في عهد يليانوس الجاحد ولم يخف من تحذير شعبه عن كفر ذلك القيصر المارق

واشتهر في القرن الخامس البلاد خلفهُ على كرسيّه القديس انطيفانر صاحب مصنّفات عديدة في مواضيع دينيّة شتّى كمقالات في ايضاح الايمان وميامر في الاعياد وردود على الهراطقة

وفي تاريخ كتبة اليونان كسوزومان وسوقراط وتاوفان وغيرهم من مؤرخي القرن الرابع الى اواخر السادس للسيح فصول شتّى واخبار منثورة عن احوال الدين

(١ اطلب كتاب لو با ودي ڤوكويه (Ph. Le Bas et Waddington: *Inscriptions Grecques et Latines*, III, p. 565)

بين عرب الشام تفيدنا علماً عن سطوة النصرانيّة واجتذابها لقلوب اهل البادية لاسيما بواسطة السيّاح والنسّاك الذين كانوا يعيشون في قفارهم ويخدمون الله كملائكة متجسمين اجساداً هيولية. فكانت فضائلهم العجيبة والكرامات التي تجري على ايديهم من شفاء الاسقام وطرد الارواح النجسة واستمداد النعم الروحيّة والبركات الزمنيّة تجذب اليهم اهل المدن والقرى فلا يلبثون ان يسمعوا تعاليمهم ويستنيروا بارشاداتهم ويهتدوا على ايديهم الى جادّة الحقّ فيطلبوا الاصطباغ بمياه المعموديّة

قال سوزمان في تاريخه (Sozomène. H E, VI, c. 38) عن عرب الشام: « قد تنصّر كثير من العرب (هو يدعوهم بالشرقيين Σαρακηνοί) قبل زمان والد (من ٣٦٤ الى ٣٧٨) ممّن اجتذبتهم الى الايمان المسيحي ارشادات الكهنة والرهبان الذين كانوا يعيشون في النسك والزهد في الانحاء المجاورة لهم عائشين بالقداسة ومجترحين المعجزات الباهرة ». ثم ذكر سوزمان ما اشرنا اليه سابقاً في دفاعنا عن نصرانيّة غسّان اعني رجوع قبيلة كبيرة كان زعيمها يدعى زوكومس (وهو ضجعم) فنال له احد الرهبان بصلواته الى الله ولداً ذكراً فاعتمد هو وكلّ قبيلته

واردف المؤلف ذلك بخبر ماوية ملكة العرب التي حاربت الرومان وغلبتهم واستولت على بلادهم الى تخوم مصر ولم ترضَ بصلحهم الّا على شرط بان يرسل الرومان الى مملكتها ناسكاً شهيراً يُدعى موسى خصّهُ الله بصنع العجائب وبقداسة الحياة فسُقف على العرب الذين تحت حكمها وكان عدد النصارى الذين وجدهم في دولتها قليلاً امّا هو فانار معظم رعاياها وعمّدهم

وفي القرن الخامس اخذ الرهبان يعيشون عيشة اجتماعيّة بعد ان كانوا يعيشون منفردين في الاقفار والمرجّح انّ الاديرة التي ذكرها حمزة الاصبهاني وابو الفداء وغيرهما بُنيت في هذا الزمان. وكذلك الاديرة التي وصفها ياقوت الرومي في معجم البلدان كدير أيوب في حوران (في قنوات على ما يظنّ وهي بلد أيوب) ودير بَوَنَا ودير سعد ودير بصرى وقد بقي بعض هذه الاديرة مدّة حتى بعد عهد الاسلام

وممّا زاد النصرانيّة ترقّياً في بلاد العرب عدد كبير من الاساقفة والكهنة والرهبان كانوا في ايّام الاضطهادات على عهد القياصرة الوثنيين او ملوك الروم للتشيعين لا يجدون على حياتهم اماناً الّا بان يهجروا بلادهم ويفرّوا الى انحاء العرب

وربَّما نفى المغتصبون هؤلاء المعترفين بالايمان من بلادهم الى بلاد العرب ليذوقوا هناك مشقَّات العيش من الجوع والعطش والعري. وكثر عددهم في أيَّام بدعة آريوس. وكان بعض هؤلاء رجالًا ذوي علم واسع وفضل يكبر كايليَّا بطريرك القدس واوجان اسقف الرها وبروتوجان اسقف حرَّان. فكان المنفيُّون اذا احتلُّوا بين العرب سعوا في انارة عقولهم وبثُّوا لهم بطلان اوثانهم وأقنعوهم بمجد اضاليلهم

بل يذكر التاريخ جملة من الشهداء قُتلوا في سبيل الايمان في بادية الشام ومدنها كالقديسين كيرلُّس واكويلا ودومطيان المستشهدين في مدينة عمَّان على عهد ديوقلطيانوس وتذكرهم الكنيسة في ١٠ آب وكزينون وزيناس الشهيدين على عهده ايضاً سنة ٣٠٥. وذكر اوسابيوس القيصري (ك٨ ف ٢١) انَّ في زمن هذا الملك قُتل عدد لا يُحصى من الشهداء في بلاد العرب. وفي السنكسار الروماني عدَّة شهداء قتلوا في بادية الشام في ذلك الاضطهاد عينه فيذكرون لشهامتهم في غزَّة آب. واستشهد فيها على عهد يابانوس الجاحد القديسان اوجان ومكاريوس المكرَّمان في ك ١. فلا غرو انَّ دم هؤلاء الشهداء أخصب زريعة الايمان واغاها في جهات العرب

وممَّا يقتضي التنبيه اليه انَّ النصرانيَّة في بادية الشام ثبتت في عزِّها الى ظهور الاسلام ونمت واتَّسعت حتَّى يجوز القول بانَّ الوثنيَّة تقلَّص ظلُّها حتَّى كاد يضمحلّ وممَّا يدلُّ على ذلك انَّ نصارى العرب الذين اجتمعوا مع الرومان لردّ غارات المسلمين في غزَّة الاسلام كانوا الوفًا مؤلَّفة يبلغ الكتبة عددهم الى مئة الف بنيف. فهذا العدد الوافر من المقاتلين يدلُّ على انَّ النصارى في بادية الشام كانوا ألوف الالوف فلا يكادُ يبقى بينهم مكان لاهل الشرك وعبدة الاصنام

هذا ولا ندَّعي انَّ النصرانيَّة الغالبة على بادية كانت سافيةً خالية من كلّ شائبة وضلال. كلَّا بل نعلم حقّ العلم انَّ البدعة اليعقوبيَّة تسرَّبت الى تلك الجهات وكدَّرت صفاء الايمان بما ادخلتهُ من المعتقدات الباطلة في طبيعتي السيد المسيح. بل دخل الى بلاد العرب كثيرون من المبتدعين الذين كانوا يؤمّون رواج اضاليلهم في اخائها دون ان يلاقوا فيها زاجرًا يزجرهم ولا وازعًا يزعهم. وكان بعضهم يفرّون الى جهات العرب لينجوا من مصادرة ملوك الروم الذين كانوا يريدون قهرهم على جحود اضاليلهم فيفضّل اولئك المتشيعون الهرب الى بادية العرب (له بقيَّة)